المؤيّدة بافصح الانبياء لهجة و اصدقهم حجة اذا نطقت جاءت بكل غريبة و ان سكتت جاءت بكل غريب و ليعجب من طائفة تتمسك بمثل هذا النص الواضح فهمه و تأويله

هذا آخر ما اردناه و وعدنا به في بيان عدم دلالة النصوص على الهيته و عدم حملها على ما يردّه صريح العقل و الجمع بين ما يعتقدون مباينته قاصدين بذلك وجه الله جعلنا الله ممن اهتدى بنور هدايته و عصم عن الخطأ في القول و العمل بتوفيقه و عنايته و صلواته على خير خلقه محمد و آله و صحابته

نجز الكتاب بكامله

مجموعة الرّوائع الانسانية–الأونسكو السّلسلة العربية

الغزالي

ايّها الولد

ترجمه الى الفرنسية توفيق الصبّاغ

بســــــم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله رب العالمين. و العاقبة للمتّقين. و الصلاة و السلام على نبيّه محمد و آله أجمعين

إعلم انّ واحدا من الطّلبة المتقدّمين لازم خدمة الشيخ الإمام زين الدين حجّة الإسلام أبي حامد بن محمد الغزالي، قدّس الله روحه، و اشتغل بالتحصيل و قراءة العلم عليه حتّى جمع دقائق العلوم، و استكمل فضائل النّفس. ثمّ إنّه تفكّر يوما في حال نفسه، و خطر على باله، و قال: إني قرأت أنواعا من العلوم، و صرفت ريعان عمري على تعلّمها و جمعها؛ و الآن ينبغي لي ان أعلم أيّ نوعها ينفعني غدا و يؤنسني في قبري؟ و أيّها لا ينفعني حتّى أتركه، كما قال رسول الله، صلى الله عليه و سلم: (**اللّهمّ أعوذ بك من علم لا ينفع**). فاستمرّت هذه الفكرة حتّى كتب إلى حضرة

الشيخ حجّة الإسلام محمّد الغزالي، رحمه الله تعالى، استفتاء، و سأله مسائل، و التمس نصيحة و دعاء قال: و إن كان مصنّفات الشّيخ كالإحياء و غيره تشتمل على جواب مسائلي، لكنّ مقصودي أن يكتب الشيخ حاجتي في ورقات تكون معي مدّة حياتي، و أعمل بما فيها مدّة عمري، إن شاء الله تعالى. فكتب الشّيخ هذه الرّسالة إليه في جوابه. و الله أعلم

إعلم، أيها الولد و المحبّ العزيز – أطال الله بقاك بطاعته و سلك بك سبيل أحبّائه – أنّ منشور النصيحة يكتب من معدن الرسالة، إن كان قد بلغك منه نصيحة، فأي حاجة لك في نصيحتي، و إن لم يبلغك فقل لي: ماذا حصّلت في هذه السّنين الماضية؟

أيّها الولد، من جملة ما نصح به رسول الله، صلى الله عليه و سلم، أمّته قوله عليه السّلام: (**علامة إعراض الله تعالى عن العبد اشتغاله بما لا يعنيه، و إنّ امرأ ذهبت ساعة من عمره في غير ما خلق له من العبادة، لجدير ان تطول عليه حسرته، و من جاوز الأربعين و لم يغلب خيره على شرّه فليتجهّز إلى النّار**). و في هذه النصيحة كفاية لأهل العلم

أيّها الولد، النصيحة سهلة و المشكل قبولها، لأنّها في مذاق متّبعي الهوى مرّة، إذ المناهي محبوبة في قلوبهم، و على الخصوص لمن كان طالب العلم الرّسميّ، و مشتغلا في فضل النّفس، و مناقب الدّنيا، فانّه يحسب انّ العلم المجردّ له سيكون نجاته و خلاصه فيه، و أنّه مستغن عن العمل – و هذا اعتقاد الفلاسفة. سبحان الله العظيم! لا يعلم هذا المغرور أنه حين حصّل العلم، إذا لم يعمل به، تكون الحجّة عليه آكد كما قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: (**أشدّ النّاس عذابا يوم القيامة عالم لا ينفعه الله بعلمه**)

و روي أنّ الجنيد، قدّس الله سرّه، رؤي في المنام بعد موته فقيل له: ما الخبر يا أبا القاسم؟ قال: «طاحت تلك العبارات، و فنيت تلك الإشارات، و ما نفعنا إلاّ ركيعات ركعناها في جوف اللّيل.»

أيّها الولد، لا تكن من الأعمال مفلسا، و لا من الأحوال خاليا، و تيقّن انّ العلم المجرّد لا يأخذ باليد. مثاله لو كان على رجل في برّيّة عشرة اسياف هنديّة مع أسلحة أخرى، و كان الرّجل شجاعا و أهل حرب، فحمل عليه أسد عظيم مهيب،

فما ظنّك؟ هل تدفع الأسلحة شرّه عنه بلا استعمالها و ضربها؟ و من المعلوم أنّها لا تدفع إلاّ بالتّحريك و الضّرب. فكذا لو قرأ رجل مائة ألف مسألة علميّة و تعلّمها، و لم يعمل بها، لا تفيده إلاّ بالعمل. و مثله أيضا لو كان لرجل حرارة و مرض صفراويّ يكون علاجه بالسّكنجبين و الكشكاب، فلا يحصل البرء إلاّ باستعمالهما

كرمي دو هزار رطل همي بيمائي * تا مي نخوري نباشدت شيدائي

[ترجم هذا البيت من الفارسية الشيخ محمد أمين الكردي فقال: لو كلت ألفي رطل خمر لم تكن لتصير نشوانا اذا لم تشرب]

و لو قرأت العلم مائة سنة، و جمعت ألف كتاب؛ لا تكون مستعدّا لرحمة الله تعالى إلاّ بالعمل (**وَ اَنْ لَيْسَ لِلاِنْسَانِ الاَّ مَا سَعَى** * النجم: ٣٨)، (**فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّه فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا** * الكهف: ١١)، (**جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** * التوبة: ٨٢). (**اِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً * خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً** * الكهف: ١٠٧-١٠٨)؛ (**فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ اَضَاعُوا الصَّلَوةَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً * الاَّ مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَاُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لاَ يُظْلَمُونَ شَيْئًا** * مريم: ٥٩-٦٠)

و ما تقول في هذا الحديث: (**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله الاّ الله و انّ محمّدا رسول الله؛ و إقام الصّلاة، و إيتاء الزّكاة؛ و صوم رمضان، و حجّ البيت لمن استطاع إليه سبيلا**)؟

و الايمان قول باللّسان و تصديق بالجنان و عمل بالاركان، و دليل الأعمال أكثر من أن يحصى، و إن كان العبد يبلغ الجنّة بفضل الله تعالى و كرمه. لكن بعد أن يستعدّ بطاعته و عبادته، لأنّ رحمة الله قريب من المحسنين. و لو قيل أيضا: يبلغ بمجرّد الإيمان قلنا: نعم، لكن متى يبلغ؟ و كم من عقبة كؤود يقطعها إلى أن يصل؟ فأوّل تلك العقبات عقبة الايمان، و أنّه هل يسلم من سلب الايمان أم لا؟ و إذا وصل هل يكون خائبا مفلسا؟ و قال الحسن البصريّ: «يقول الله تعالى لعباده يوم القيامة: ادخلوا، يا عبادي الجنّة برحمتي و اقتسموها بأعمالكم.»

أيّها الولد، ما لم تعمل لم تجد الأجر. حكي أنّ رجلا من بني إسرائيل عبد الله تعالى سبعين سنة. فأراد الله تعالى أن يجلوه على الملائكة؛ فأرسل الله إليه ملكا يخبره أنّه مع تلك العبادة لا يليق به دخول الجنّة، فلمّا بلغه قال العابد: نحن خلقنا للعبادة

فينبغي لنا أن نعبده. فلمّا رجع الملك قال: إلهي أنت أعلم بما قال. فقال الله تعالى: (**اذا هو لم يعرض عن عبادتنا فنحن مع الكرم لا نعرض عنه. إشهدوا يا ملائكتي أنّي قد غفرت له.**)

و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: (**حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، و زنوا أعمالكم قبل أن توزنوا.**) و قال عليّ رضى الله عنه: «من ظنّ أنّه بدون الجهد يصل فهو متمنّ. و من ظنّ أنّه ببذل الجهد يصل فهو مستغن.» و قال الحسن، رحمه الله تعالى: «طلب الجنّة بلا عمل ذنب من الذّنوب.» و قال: «علامة الحقيقة ترك ملاحظة العمل لا ترك العمل.» و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: (**الكيّس من دان نفسه و عمل لما بعد الموت، و الأحمق من اتّبع هواه و تمنّى على الله تعالى الأمانيّ.**)

أيّها الولد، كم من ليال أحييتها بتكرار العلم، و مطالعة الكتب، و حرمت على نفسك النّوم؟ لا أعلم ما كان الباعث فيه؟ إن كان نيل عرض الدّنيا و جذب حطامها و تحصيل مناصبها و المباهاة على الأقران و الأمثال فويل لك ثمّ ويل لك. و إن كان قصدك فيه إحياء شريعة النّبيّ صلى الله عليه و سلم، و تهذيب أخلاقك و كسر النّفس الأمارة بالسّوء، فطوبى لك ثمّ طوبى لك. و لقد صدق من قال شعرا:

سهر العيون لغير وجهك ضائع * و بكاؤهن لغير فقدك باطل

أيها الولد، عش ما شئت فإنّك ميّت، و أحبب ما شئت فإنّك مفارقه؛ و اعمل ما شئت فإنّك مجزيّ به

أيّها الولد، أي شئ حاصل لك من تحصيل علم الكلام و الخلاف و الطبّ و الدّواوين و الأشعار و النّجوم و العروض و النّحو و التّصريف غير تضييع العمر بخلاف ذي الجلال إنّي رأيت في إنجيل عيسى، عليه الصّلاة و السّلام: «من ساعة أن يوضع الميت على الجنازة إلى أن يوضع على شفير القبر يسأل الله بعظمته منه أربعين سؤالا. أوّلها يقول: عبدي طهّرت منظر الخلق سنين و ما طهّرت منظري ساعة. و كلّ يوم ينظر في قلبك يقول: ما تصنع لغيري و أنت محفوف بخيري. أمّا أنت فأصمّ لا تسمع!»

أيّها الولد، العلم بلا عمل جنون، و العمل بغير علم لا يكون

و اعلم أن العلم الذي لا يبعدك اليوم عن المعاصي و لا يحملك على الطاعة،

لن يبعدك غدا عن نار جهنّم، و إذا لم تعمل بعلمك اليوم و لم تدارك الأيام الماضية تقول غدا يوم القيامة: «فارجعنا نعمل صالحا» فيقال: «يا أحمق أنت من هناك تجئ!»

أيّها الولد، اجعل الهمّة في الرّوح، و الهزيمة في النفس، و الموت في البدن، لأنّ منزلك القبر، و أهل المقابر ينتظرونك في كل لحظة متى تصل إليهم؟ إيّاك إيّاك أن تصل إليهم بلا زاد. قال أبوبكر الصّدّيق رضي الله عنه: «هذه الأجساد قفص الطّيور او إصطبل الدّواب، فتفكّر في نفسك؛ من أيهما أنت؟ إن كنت من الطّيور العلويّة فحين تسمع طنين طبل «ارجعي إلى ربّك» تطير صاعدا إلى أن تقعد في أعالي بروج الجنان، كما قال رسول الله صلّى الله عليه و سلم: (**اهتزّ عرش الرّحمن من موت سعد بن معاذ**). و العياذ بالله إن كنت من الدّوابّ، كما قال الله تعالى: (**اوُلَئكَ كَالْاَنْعَامِ بَلْ هُمْ اَضَلُّ** * الاعراف: ١٧٩) فلا تأمن انتقالك من زاوية الدّار إلى هاوية النّار. و روي أنّ الحسن البصريّ، رحمه الله تعالى، أعطي شربة ماء بارد، فأخذ القدح و غشي عليه و سقط من يده، فلمّا أفاق قيل: ما لك يا أبا سعيد؟ قال: ذكرت أمنيّة أهل النّار حين يقولون لأهل الجنّة: (**أَنْ أَفِيضوُا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ** * الاعراف: ٥٠)

أيّها الولد، لو كان العلم المجرّد كافيا لك و لا تحتاج إلى عمل سواه لكان نداء «هل من سائل؟ هل من مستغفر؟ هل من تائب؟» ضائعا بلا فائدة. و روي أن جماعة من الصحابة، رضوان الله عليهم أجمعين، ذكروا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عند رسول الله صلى الله عليه و سلّم؛ فقال: (**نعم الرّجل هو لو كان يصلي باللّيل**). و قال عليه الصلاة و السلام لرجل من أصحابه: (**يا فلان، لا تكثر النّوم باللّيل فإنّ كثرة النّوم باللّيل يدع صاحبه فقيرا يوم القيامة.**)

أيّها الولد (**وَ مِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ** * الاسراء: ٧٩) أمر، (**وَ بِالْاَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِروُنَ** * الذاريات: ١٨) شكر، (**وَ الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ** * آل عمران: ١٧) ذكر. قال عليه السلام (**ثلاثة أصوات يحبّها الله تعالى. صوت الدّيك، و صوت الّذي يقرأ القرآن، و صوت المستغفرين بالأسحار**.) قال سفيان الثّوري، رحمة الله تعالى عليه: «إنّ الله تبارك و تعالى خلق ريحا تهبّ بالأسحار تحمل الأذكار و الإستغفار إلى الملك الجبّار.» و قال أيضا: «إذا كان أوّل اللّيل ينادي مناد من تحت العرش: ألا ليقم العابدون. فيقومون و يصلّون ما شاء الله. ثمّ ينادي مناد في شطر اللّيل: ألا ليقم القانتون. فيقومون و يصلّون إلى السّحر. فإذا كان السّحر نادى مناد:

ألا ليقم المستغفرون. فيقومون و يستغفرون. فإذا طلع الفجر نادى مناد: ألا ليقم الغافلون. فيقومون من فرشهم كالموتى نشروا من قبورهم.»

أيّها الولد، روي في وصايا لقمان الحكيم لابنه أنّه قال: «يا بنيّ، لا يكوننّ الدّيك أكيس منك! ينادي بالأسحار و أنت نائم.» و لقد أحسن من قال شعرا:

لقد هتفت في جنح ليل حمامة * على فنن وهنا، و إنّي لنائم

كذبت، و بيت الله، لو كنت عاشقا * لما سبقتني بالبكاء الحمائم

و أزعم أنّي هائم ذو صبابة * لربّي، فلا أبكي و تبكي البهائم

أيّها الولد، خلاصة العلم أن تعلم الطّاعة و العبادة ما هي

إعلم أنّ الطّاعة و العبادة متابعة الشّارع في الأوامر و النّواهي بالقول و الفعل. يعني: كلّ ما تقول و تفعل و تترك يكون باقتداء الشّرع، كما لو صمت يوم العيد و أيّام التّشريق تكون عاصيا، أو صلّيت في ثوب مغصوب، و إن كانت صورة عبادة، تأثم

أيّها الولد، ينبغي لك أن يكون قولك و فعلك موافقا للشّرع؛ إذ العلم و العمل بلا اقتداء الشّرع ضلالة، و ينبغي لك ألاّ تغترّ بالشّطح و طامّات الصّوفيّة، لأنّ سلوك هذا الطريق يكون بالمجاهدة و قطع شهوة النّفس و قتل هواها بسيف الرّياضة، لا بالطّامّات و التّرهات

و اعلم أنّ اللّسان المطلق، و القلب المطبق المملوء بالغفلة و الشّهوة، علامة الشّقاوة، فإذا لم تقتل النّفس بصدق المجاهدة فلن يحيا قلبك بأنوار المعرفة

و اعلم أنّ بعض مسائلك التي سألتني عنها لا يستقيم جوابها بالكتابة و القول، إن تبلغ تلك الحالة تعرف ما هي، و إلاّ فعلمها من المستحيلات لأنّها ذوقيّة، و كلّ ما يكون ذوقيا لا يستقيم وصفه بالقول كحلاوة الحلو و مرارة المرّ لا تعرف إلاّ بالذّوق. كما حكي أنّ عنّينا كتب إلى صاحب له أن عرّفني لذّة المجامعة كيف تكون. فكتب له في جوابه، يا فلان إنّي كنت حسبتك عنّينا فقط. و الآن عرفت أنّك عنّين و أحمق. لأنّ هذه اللّذة ذوقيّة إن تصل إليها تعرف، و إلاّ لا يستقيم وصفها بالقول و الكتابة

أيّها الولد، بعض مسائلك من هذا القبيل، و أمّا البعض الذي يستقيم له الجواب فقد ذكرناه في (إحياء العلوم) و غيره، و نذكر ههنا نبذا منه و نشير إليه فنقول:

قد وجب على السّالك أربعة أمور:

الأمر الأوّل: إعتقاد صحيح لا يكون فيه بدعة

و الثّاني: توبة نصوح لا يرجع بعدها إلى الزلّة

و الثّالث: إسترضاء الخصوم حتّى لا يبقى لأحد عليك حقّ

و الرّابع: تحصيل علم الشّريعة قدر ما تؤدّى به أوامر الله تعالى، ثم من العلوم الاخرى ما تكون به النّجاة

حكي أنّ الشّبلي، رحمه الله، خدم أربعمائة أستاذ؛ و قال: قرأت أربعة آلاف حديث، ثمّ اخترت منها حديثا واحدا و عملت به، و خلّيت ما سواه، لأني تأمّلته فوجدت خلاصي و نجاتي فيه، و كان علم الأوّلين و الآخرين كلّه مندرجا فيه فاكتفيت به، و ذلك أنّ رسول الله صلّى الله عليه و سلم، قال لبعض أصحابه: (**إعمل لدنياك بقدر مقامك فيها، و اعمل لآخرتك بقدر بقائك فيها، و اعمل لله بقدر حاجتك إليه، و اعمل للنّار بقدر صبرك عليها**)

أيّها الولد، إذا علمت هذا الحديث، لا حاجة إلى العلم الكثير. و تأمّل في حكايات أخرى، و ذلك أنّ حاتما الأصمّ كان من أصحاب الشّقيق البلخيّ، رحمة الله تعالى عليهما، فسأله يوما قال: صاحبتني منذ ثلاثين سنة ما حصّلت فيها؟ قال: حصّلت ثماني فوائد من العلم، و هي تكفيني منه ،لأني أرجو خلاصي و نجاتي فيها. فقال شقيق ما هي؟ قال حاتم الأصمّ:

(الفائدة الأولى) أنّي نظرت إلى الخلق فرأيت لكلّ منهم محبوبا و معشوقا يحبّه و يعشقه، و بعض ذلك المحبوب يصاحبه إلى مرض الموت، و بعضه إلى شفير القبر، ثمّ يرجع كلّه و يتركه فريدا وحيدا و لا يدخل معه في قبره منهم أحد، فتفكّرت و قلت: أفضل محبوب المرء ما يدخل في قبره و يؤانسه فيه، فما وجدته غير الأعمال الصّالحة فأخذتها محبوبا لي لتكون سراجا لي في قبري؛ و تؤانسني فيه و لا تتركني فريدا

(الفائدة الثّانية) أني رأيت الخلق يقتدون بأهوائهم و يبادرون إلى مرادات أنفسهم، فتأملت قوله تعالى: (**وَ اَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَاِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَاْوَى** * النازعات: ٤٠-٤١). و تيقّنت انّ القرآن حقّ صادق، فبادرت إلى خلاف نفسي و تشمّرت لمجاهدتها و منعها عن هواها حتّى ارتاضت لطاعة الله سبحانه و تعالى، و انقادت

(الفائدة الثّالثة) أنّي رأيت كلّ واحد من النّاس يسعى في جمع حطام الدّنيا ثمّ يمسكه قابضا يده عليه، فتأمّلت في قوله تعالى: (**مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَ مَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ** * النحل: ٩٦) فبذلت محصولي من الدّنيا لوجه الله تعالى ففرّقته بين المساكين ليكون ذخرا لي عند الله تعالى

(الفائدة الرّابعة) أنّي رأيت بعض الخلق ظنّ شرفه و عزّه في كثرة الأقوام و العشائر فاغترّ بهم، و زعم آخرون أنّه في ثروة الأموال و كثرة الأولاد فافتخروا بها، و حسب بعضهم الشرّف و العزّ في غصب أموال النّاس و ظلمهم و سفك دمائهم، و اعتقدت طائفة أنّه في إتلاف المال و إسرافه و تبذيره، و تأمّلت في قوله تعالى: (**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقيَكُمْ** * الحجرات: ١٣) فاخترت التّقوى و اعتقدت أنّ القرآن حقّ صادق، و ظنّهم و حسبانهم كلّها باطل زائل

(الفائدة الخامسة) أنّي رأيت النّاس يذمّ بعضهم بعضا و يغتاب بعضهم بعضا فوجدت ذلك من الحسد في المال و الجاه و العلم، فتأمّلت في قوله تعالى: (**نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَاةِ الدُّنْيَا** * الزخرف: ٣٢) فعلمت أنّ القسمة كانت من الله تعالى في الأزل، فما حسدت أحدا و رضيت بقسمة الله تعالى

(الفائدة السّادسة) أني رأيت النّاس يعادي بعضهم بعضا لغرض و سبب، فتأمّلت قوله تعالى: (**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذوُهُ عَدُوًّا** * فاطر: ٦) فعلمت أنّه لا تجوز عداوة أحد غير الشّيطان

(الفائدة السّابعة) أنّي رأيت كلّ أحد يسعى بجدّ و يجتهد بمبالغة لطلب القوت و المعاش بحيث يقع به في شبهة و حرام، و يذلّ نفسه، و ينقص قدره، فتأملت في قوله تعالى: (**وَ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا** * هود: ٦) فعلمت أنّ رزقي على الله تعالى و قد ضمنه؛ فاشتغلت بعبادته و قطعت طمعي عمّن سواه

(الفائدة الثّامنة) أنّي رأيت كلّ واحد معتمدا على شئ مخلوق: بعضهم إلى الدّينار و الدّرهم، و بعضهم إلى المال و الملك، و بعضهم إلى الحرفة و الصّناعة، و بعضهم إلى مخلوق مثله، فتأمّلت في قوله تعالى: (**وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ انَّ اللهَ بَالِغُ اَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا** * الطلاق: ٣) فتوكّلت على الله فهو حسبي و نعم الوكيل

فقال شقيق: وفّقك الله تعالى، إنّي قد نظرت التّوراة و الانجيل و الزّبور و

الفرقان فوجدت الكتب الأربعة تدور على هذه الفوائد الثّمانية. فمن عمل بها كان عاملا بهذه الكتب الأربعة

أيّها الولد، قد علمت من هاتين الحكايتين أنّك لا تحتاج إلى تكثير العلم. و الآن أبيّن لك ما يجب على سالك سبيل الحقّ:

إعلم أنّه ينبغي للسّالك شيخ مرشد مربّ ليخرج الأخلاق السّيّئة منه بتربيته و يجعل مكانها خلقا حسنا، و معنى التّربية يشبه فعل الفلاّح الذي يقلع الشّوك و يخرج النّباتات الأجنبيّة من بين الزّرع ليحسن نباته و يكمله ريعه، و لابدّ للسّالك من شيخ يؤدّبه و يرشده إلى سبيل الله تعالى، لأنّ الله أرسل للعباد رسولا للإرشاد إلى سبيله. فإذا ارتحل، صلى الله عليه و سلم، فقد خلّف الخلفاء في مكانه حتّى يرشدوا إلى الله تعالى. و شرط الشيخ الذي يصلح أن يكون نائبا لرسول الله صلوات الله و سلامه عليه، أن يكون عالما و لكن لا كلّ عالم يصلح للخلافة. و إنّي أبيّن لك بعض علاماته على سبيل الإجمال حتّى لا يدّعي كلّ أحد أنّه مرشد. فنقول: من يعرض عن حب الدّنيا و حبّ الجاه، و كان قد تابع لشخص بصير تتسلسل متابعته إلى سيّد المرسلين، صلّى الله عليه و سلّم، و كان محسنا رياضة نفسه بقلّة الأكل و القول و النّوم، و كثرة الصّلوات و الصّدقة و الصّوم. و كان بمتابعته ذلك الشيخ البصير جاعلا محاسن الأخلاق له سيرة كالصّبر و الصّلاة و الشّكر و التّوكّل و اليقين و القناعة و طمأنينة النّفس و الحلم و التّواضع و العلم و الصّدق و الحياء و الوفاء و الوقار و السكون و التّأنّي و أمثالها، فهو إذا نور من أنوار النّبيّ صلى الله عليه و سلم يصلح للاقتداء به. و لكنّ وجود مثله نادر أعزّ من الكبريت الأحمر. و من ساعدته السّعادة فوجد شيخا كما ذكرنا، و قبله الشيخ، ينبغي أن يحترمه ظاهرا و باطنا. أما إحترام الظّاهر فهو ألاّ يجادله و لا يشتغل بالاحتجاج معه في كلّ مسألة و إن علم خطأه. و لا يلقي بين يديه سجّادته إلاّ وقت أداء الصّلاة فإذا فرغ يرفعها. و لا يكثر نوافل الصّلاة بحضرته. و يعمل ما يأمره الشيخ من العمل بقدر وسعه و طاقته. و أما احترام الباطن فهو أنّ كلّ ما يسمع و يقبل منه في الظّاهر لا ينكره في الباطن، لا فعلا و لا قولا، لئلا يتّسم بالنّفاق. و إن لم يستطع يترك صحبته إلى أن يوافق باطنه ظاهره. و يحترز عن مجالسة صاحب السّوء ليقصر ولاية شياطين الجنّ و الإنس عن صحن قلبه، فيصفّى من لوث الشّيطنة، و على كلّ حال يختار الفقر على الغنى

ثمّ اعلم أنّ التّصوّف له خصلتان:

الإستقامة مع الله تعالى؛ و السّكون عن الخلق

فمن استقام مع الله عزّ و جلّ، و أحسن خلقه بالنّاس و عاملهم بالحلم فهو صوفيّ. و الإستقامة أن يفدي حظّ نفسه على أمر الله تعالى. و حسن الخلق مع النّاس ألاّ تحمل النّاس على مراد نفسك، بل تحمل نفسك على مرادهم، ما لم يخالفوا الشّرع

ثمّ إنّك سألتني عن العبوديّة و هي ثلاثة أشياء:

أحدها محافظة أمر الشّرع

و ثانيها الرّضاء بالقضاء و القدر و قسمة الله تعالى

و ثالثها ترك رضاء نفسك في طلب رضاء الله تعالى

و سألتني عن التّوكّل و هو أن تستحكم اعتقادك بالله تعالى فيما وعد، يعني تعتقد أنّ ما قدّر لك سيصل إليك لا محالة ،و إن اجتهد كلّ من في العالم على صرفه عنك، و ما لم يكتب لن يصل إليك و إن ساعدك جميع العالم

و سألتني عن الإخلاص، و هو أن تكون أعمالك كلّها لله تعالى و لا يرتاح قلبك بمحامد النّاس و لا تبالي بمذمّتهم. و اعلم أنّ الرّياء يتولّد من تعظيم الخلق. و علاجه أن تراهم مسخّرين تحت القدرة و تحسبهم كالجمادات في عدم قدرة إيصال الرّاحة و المشقّة لتخلص من مراءاتهم. و متى تحسبهم ذوي قدرة و إرادة لن يبعد عنك الرّياء

أيّها الولد، و الباقي من مسائلك بعضها مسطور في مصنّفاتي فاطلبه ثمّة، و كتابة بعضها حرام. إعمل أنت بما تعلم لينكشف لك ما لم تعلم

أيّها الولد، بعد اليوم، لا تسألني ما أشكل عليك إلاّ بلسان الجنان لقوله تعالى (**وَ لَوْ اَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ اِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ** * الحجرات: ٥). و اقبل نصيحة الخضر عليه السلام، حين قال: (**فَلاَ تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى اُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا** * الكهف: ٧٠) و لا تستعجل حتّى تبلغ أوانه يكشف لك و تراه (**سَاُرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلوُن** * الانبياء: ٣٧). فلا تسألني قبل الوقت، و تيقّن أنّك لا تصل إلاّ بالسّير؛ لقوله تعالى (**اَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي اْلاَرْضِ فَيَنْظُرُوا** * فاطر: ٤٤)

أيّها الولد، بالله إن تسر تر العجائب في كلّ مترل، و أبذل روحك فإنّ رأس هذا الأمر بذل الرّوح، كما قال ذو النّون المصري، رحمه الله تعالى، لأحد تلامذته: «إن قدرت على بذل الرّوح فتعال، و إلاّ فلا تشتغل بترّهات الصّوفيّة.»

أيّها الولد، إنّي أنصحك بثمانية أشياء. إقبلها منّي لئلاّ يكون علمك خصما عليك يوم القيامة. تعمل منها أربعة، و تدع منها أربعة

أمّا اللّواتي تدع:

(فأحدها) ألاّ تناظر أحدا في مسألة ما استطعت، لأنّ فيها آفات كثيرة. فإثمها أكبر من نفعها، إذ هي منبع كلّ خلق ذميم كالرّياء و الحسد و الكبر و الحقد و العداوة و المباهاة و غيرها. نعم لو وقع مسألة بينك و بين شخص أو قوم، و كانت إرادتك فيها أن يظهر الحقّ و لا يضيع، جاز البحث لكن لتلك الإرادة علامتان:

إحداهما ألاّ تفرق بين أن ينكشف الحقّ على لسانك أو على لسان غيرك

و الثّانية أن يكون البحث في الخلاء أحبّ إليك من أن يكون في الملإ. و اسمع إنّي أذكر لك ههنا فائدة و اعلم أنّ السّؤال عن المشكلات عرض مرض القلب إلى الطّبيب، و الجواب له سعي لإصلاح مرضه. و اعلم أن الجاهلين المرضى قلوبهم، و العلماء الأطبّاء، و العالم النّاقص لا يحسن المعالجة. و العالم الكامل لا يعالج كلّ مريض، بل يعالج من يرجو قبول المعالجة و الصّلاح، و إذا كانت العلّة مزمنة أو عقيما لا تقبل العلاج، فحذاقة الطبيب فيه أن يقول هذا لا يقبل العلاج فلا تشتغل فيه بمداواته لأنّ فيه تضييع العمر. ثمّ اعلم أنّ مرض الجهل على أربعة أنواع:

أحدها يقبل العلاج و الباقي لا يقبل. أما الذي لا يقبل العلاج فأحدها من كان سؤاله و اعتراضه عن حسده و بغضه، فكلّما تجيبه بأحسن الجواب و أفصحه و أوضحه، فلا يزيد له ذلك إلاّ بغضا و عداوة و حسدا. فالطريق ألاّ تشتغل بجوابه فقد قيل:

كلّ العداوة قد ترجى إزالتها * إلاّ عداوة من عاداك عن حسد

فينبغي أن تعرض عنه و تتركه مع مرضه. قال الله تعالى (**فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ الاَّ الْحَيَوةَ الدُّنيَا** * النجم: ٢٩) و الحسود بكلّ ما يقول و يفعل يوقد النّار في زرع عمله. كما قال النبي عليه السّلام (**الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النّار الحطب**)

و الثّاني أن تكون علّته من الحماقة و هو أيضا لا يقبل العلاج، كما قال عيسى عليه السلام: (إنّي ما عجزت عن إحياء الموتى و قد عجزت عن معالجة الأحمق). و ذلك رجل يشتغل بطلب العلم زمنا قليلا و يتعلّم شيئا من العلم العقليّ و الشرعيّ فيسأل و يعترض من حماقته على العالم الكبير الذي مضّى عمره في العلوم

العقليّة والشّرعيّة، وهذا الأحمق لا يعلم و يظنّ أنّ ما أشكل عليه هو أيضا مشكل علي العالم الكبير. فإذا لم يعلم هذا القدر يكون سؤاله من الحماقة فينبغي ألاّ تشتغل بجوابه

و الثّالث أن يكون مسترشدا؛ و كلّ ما لا يفهم من كلام الأكابر يحمل على قصور فهمه، و كان سؤاله للإستفادة، لكن يكون بليدا لا يدرك الحقائق، فلا ينبغي الإشتغال بجوابه أيضا كما قال رسول الله صلّى الله عليه و سلم. (**نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلّم النّاس على قدر عقولهم**).

و أمّا المرض الذي يقبل العلاج فهو أن يكون مسترشدا عاقلا فهما، لا يكون مغلوب الحسد و الغضب و حبّ الشّهوة و الجاه و المال. و يكون طالب الطريق المستقيم؛ و لم يكن سؤاله و اعتراضه عن حسد و تعنّت و امتحان. و هذا يقبل العلاج فيجوز أن تشتغل بجواب سؤاله، بل يجب عليك إجابته

(و الثّاني) ممّا تدع هو أن تحذر من أن تكون واعظا و مذكّرا لأنّ فيه آفة كثيرة، إلاّ أن تعمل بما تقول أوّلا ثمّ تعظ به النّاس. فتفكّر فيما قيل لعيسى عليه السلام: «يا ابن مريم عظ نفسك فإن اتعظت فعظ النّاس و إلا فاستح من ربّك». و إن ابتليت بهذا العمل فاحترز عن خصلتين:

الأولى – عن التّكلّف في الكلام بالعبارات و الإشارات و الطّامّات و الأبيات و الأشعار، لأن الله تعالى يبغض المتكلّفين، و المتكلّف المتجاوز عن الحدّ يدلّ على خراب الباطن و غفلة القلب، و معنى التّذكير أن يذكر العبد نار الآخرة و تقصير نفسه في خدمة الخالق، و يتفكّر في عمره الماضي الذي أفناه فيما لا يعينه، و يتفكّر فيما بين يديه من العقبات من عدم سلامة الإيمان في الخاتمة، و كيفيّة حاله في قبض ملك الموت، و هل يقدر على جواب منكر و نكير؛ و يهتمّ بحاله في القيامة و مواقفها، و هل يعبر عن الصّراط سالما أم يقع في الهاوية؟ و يستمرّ ذكر هذه الأشياء في قلبه فيزعجه عن قراره. فغليان هذه النّيران، و نوحة هذه المصائب يسمّى تذكيرا

و إعلام الخلق، و إطلاعهم على هذه الأشياء ،و تنبيههم على تقصيرهم و تفريطهم، و تبصيرهم بعيوب أنفسهم لتمسّ حرارة هذه النّيران أهل المجلس و تجزعهم تلك المصائب، ليتداركوا العمر الماضي بقدر الطّاقة و يتحصّروا على الأيام الخالية في غير طاعة الله تعالى. و هذه الجملة على هذا الطّريق يسمّى وعظا. كما لو رأيت أن السّيل قد هجم على دار أحد، و كان هو و أهله فيها

فتقول: الحذر الحذر، فرّوا من السّيل. و هل يشتهي قلبك في هذه الحالة أن

تخبر صاحب الدّار خبرك بتكلّف العبارات و النّكت و الإشارات فلا تشتهي البتّة، فكذلك حال الواعظ، فينبغي أن يجتنبها

و الخصلة الثّانية ألاّ تكون همّتك في وعظك أن ينعر الخلق في مجلسك أو يظهروا الوجد، و يشقّوا الثّياب ليقال: نعم المجلس هذا ! لأنّ كلّه ميل للدّنيا، و هو يتولّد من الغفلة. بل ينبغي أن يكون عزمك و همّتك أن تدعو النّاس من الدّنيا إلى الآخرة، و من المعصية إلى الطّاعة، و من الحرص إلى الزّهد؛ و من البخل إلى السّخاء، و من الشّك إلى اليقين، و من الغفلة إلى اليقظة، و من الغرور إلى التّقوى، و تحبّب إليهم الآخرة و تبغّض إليهم الدّنيا، و تعلّمهم علم العبادة و الزّهد؛ و لا تغرّهم بكرم الله تعالى عزّ و جلّ و رحمته. لأنّ الغالب في طباعهم الزّيغ عن منهج الشّرع، و السّعي فيما لا يرضى الله تعالى به، و الإستعثار بالاخلاق الرّديئة. فألق في قلوبهم الرّعب و روّعهم و حذّرهم عمّا يستقبلون من المخاوف، و لعلّ صفات باطنهم تتغيّر و معاملة ظاهرهم تتبدّل، و يتظهّروا الحرص و الرّغبة في الطّاعة، و الرّجوع عن المعصية. و هذا طريق الوعظ و النّصحية، و كلّ وعظ لا يكون هكذا فهو وبال على من قال و سمع، بل قيل: إنّه غول و شيطان يذهب بالخلق عن الطريق و يهلكهم، فيجب عليهم أن يفرّوا منه لأنّ ما يفسد هذا القائل من دينهم لا يستطيع بمثله الشّيطان. و من كانت له يد و قدرة يجب عليه أن يتزله عن منابر المواعظ، و يمنعه عمّا باشر فإنّه من جملة الأمر بالمعروف و النّهي عن المنكر

(و الثّالث) ممّا تدع ألاّ تخالط الأمراء و السّلاطين و لا تراهم، لأنّ رؤيتهم و مجالستهم و مخالطتهم آفة عظيمة، و لو ابتليت بها، دع عنك مدحهم و ثناءهم، لأنّ الله تعالى يغضب إذا مدح الفاسق و الظّالم. و من دعا لطول بقائهم فقد أحبّ أن يعصى الله في أرضه

(و الرّابع) ممّا تدع ألاّ تقبل شيئا من عطاء الأمراء و هداياهم، و إن علمت أنها من الحلال. لأنّ الطّمع منهم يفسد الدّين، لأنّه يتولّد منه المداهنة، و مراعاة جانبهم و الموافقة في ظلمهم. و هذا كلّه فساد في الدّين، و أقلّ مضرّته أنّك إذا قبلت عطاياهم و انتفعت من دنياهم أحببتهم، و من أحبّ أحدا يحبّ طول عمره و بقائه بالضّرورة، و في محبّة بقاء الظّالم إرادة في الظّلم على عباد الله تعالى، و إرادة خراب العالم. فأيّ شئ يكون أضرّ من هذا للدّين و العاقبة؟ و إيّاك إيّاك أن يخدعك استهواء الشّياطين، أو قول بعض النّاس لك بأنّ الأفضل و الأولى أن تأخذ الدّينار و الدّرهم

منهم و تفرّقهما بين الفقراء و المساكين فإنّهم ينفقون في الفسق و المعصية، و إنفاقك على ضعفاء النّاس خير من إنفاقهم، فإنّ اللّعين قد قطع أعناق كثير من النّاس بهذه الوسوسة، و قد ذكرناه في إحياء العلوم فاطلبه ثمّة

و أمّا الأربعة التي ينبغي لك أن تفعلها:

(فالأوّل) أن تجعل معاملتك مع الله تعالى بحيث لو عامل معك بها عبدك ترضى بها منه، و لا يضيق خاطرك عليه و لا تغضب، و الّذي لا ترضى لنفسك من عبدك المجازي فلا ترضى أيضا لله تعالى و هو سيّدك الحقيقيّ

(و الثّاني) كلّما عملت بالنّاس اجعله كما ترضى لنفسك منهم لأنّه لا يكمل ايمان عبد حتّى يحب لسائر النّاس ما يحبّ لنفسه

(و الثالث) إذا قرأت العلم أو طالعته ينبغي أن يكون علمك يصلح قلبك، و يزكّي نفسك، كما لو علمت أنّ عمرك ما يبقى غير أسبوع، فبالضّرورة لا تشتغل فيها بعلم الفقه و الأخلاق و الأصول و الكلام و أمثالها، لأنّك تعلم أنّ هذه العلوم لا تغنيك. بل تشتغل بمراقبة القلب و معرفة صفات النّفس، و الإعراض عن علائق الدّنيا، و تزكّي نفسك عن الأخلاق الذّميمة، و تشتغل بمحبّة الله تعالى و عبادته، و الإتصاف بالأوصاف الحسنة، و لا يمرّ على عبد يوم و ليلة إلاّ و يمكن أن يكون موته فيه

أيّها الولد، إسمع منّي كلاما آخر و تفكّر فيه حتّى تجد خلاصا: لو أنّك أخبرت أنّ السّلطان بعد أسبوع يجيئك زائرا، فأنا أعلم أنّك في تلك المدّة لا تشتغل إلاّ بإصلاح ما علمت أنّ نظر السّلطان سيقع عليه من الثياب و البدن و الدّار و الفراش و غيرها، و الآن تفكّر إلى ما أشرت به فإنّك فهم، و الكلام الفرد يكفي الكيس، قال رسول الله عليه الصّلاة و السّلام: (**إنّ الله لا ينظر إلى صوركم و لا إلى أعمالكم و لكن ينظر إلى قلوبكم و نيّاتكم**) و إن أردت علم أحوال القلب فانظر إلى «الإحياء» و غيره من مصنّفاتي. و هذا العلم فرض عين، و غيره فرض كفاية، إلاّ مقدار ما يؤدّى به فرائض الله تعالى، و هو يوفّقك حتّى تحصّله

(و الرّابع) ألاّ تجمع من الدّنيا أكثر من كفاية سنة، كما كان رسول الله عليه الصلاة و السلام، يعدّ ذلك لبعض حجراته و قال: (**أللّهمّ اجعل قوت آل محمّد كفافا**). و لم يكن يعدّ ذلك لكلّ حجراته بل كان يعدّه لمن علم أنّ في قلبها ضعفا. و أمّا من كانت صاحبة يقين فما كان يعدّ لها أكثر من قوت يوم أو نصف

أيّها الولد، إنّي كتبت في هذا الفصل ملتمساتك فينبغي لك أن تعمل بها و لا

تنساني فيه من أن تذكرني في صالح دعائك. و أمّا الدّعاء الّذي سألت منّي فاطلبه من دعوات الصّحاح، و اقرأ هذا الدّعاء في جميع أوقاتك خصوصا أعقاب صلواتك:

«أللّهمّ إنّي أسألك من النّعمة تمامها، و من العصمة دوامها، و من الرّحمة شمولها، و من العافية حصولها، و من العيش ارغده، و من العمر أسعده، و من الإحسان أتمّه، و من الإنعام أعمّه، و من الفضل أعذبه، و من اللّطف أنفعه

أللّهمّ كن لنا و لا تكن علينا

أللّهمّ اختم بالسعادة آجالنا. و حقّق بالزّيادة آمالنا، و اقرن بالعافية غدوّنا و آصالنا، و اجعل إلى رحمتك مصيرنا و مآلنا، و اصبب سجال عفوك على ذنوبنا، و منّ علينا بإصلاح عيوبنا، و اجعل التّقوى زادنا، و في دينك إجتهادنا، و عليك توكّلنا و اعتمادنا. أللّهمّ ثبّتنا على نهج الإستقامة، و أعذنا في الدّنيا من موجبات النّدامة يوم القيامة، و خفّف عنّا ثقل الأوزار، و ارزقنا عيشة الأبرار، و اكفنا ما اهمّنا في هذه الدّار و في تلك الدّار و اصرف عنّا شرّ الأشرار و كيد الفجّار و اعتق رقابنا و رقاب آبائنا و أمّهاتنا و إخواننا و أخواتنا من النّار، برحمتك يا عزيز يا غفّار، يا كريم يا ستّار يا خالق اللّيل و النّهار خلّصنا من همّ الدّنيا و عذاب القبر و النّار يا عليم يا جبّار، يا ألله، يا ألله، يا ألله، برحمتك يا أرحم الرّاحمين، و يا أول الأوّلين، و يا آخر الآخرين، و يا ذا القوّة المتين، و يا راحم المساكين، و يا أرحم الرّاحمين، لا إله إلاّ أنت سبحانك إنّي كنت من الظّالمين. و صلّى الله على سيّدنا محمّد و آله و صحبه أجمعين، و الحمد لله ربّ العالمين.»

المكاتيب المنتخبة من الجلد الاول و الثالث من مكتوبات الامام الرباني المجدد للالف الثاني رحمة الله تعالى عليه

{المكتوب الثاني و العشرون ارسل الى الشيخ عبد المجيد بن الشيخ محمد المفتي اللاهوري في بيان وجه التعلق بين الروح و النفس و بيان عروجهما و نزولهما و بيان الفناء الجسدي و الروحي و بقائهما و بيان مقام الدعوة و الفرق بين المستهلكين من الاولياء و الراجعين الى الدعوة}